التطور التاريخي لفلسفة الجمال والفن

في العصور القديمة والوسطى

د. كريمة محمد بشيوة
قسم الفلسفة – كلية الآداب
جامعة طرابلس

مقدمة:

هذه الورقة محاولة لقراءة تاريخية لنشأة الفن عبر المراحل المختلفة للحضارة الإنسانية في الفلسفات القديمة والوسطى، حيث يميز المؤرخون مسيرة الفن في المجتمعات الإنسانية بين نمطين قديمين سادا جميع المجتمعات القديمة . فقد حدد مؤرخو الفن أقدم أنواع الفن عند الإنسان بأنه النمط الذي ارتبط بالعصر الحجري الذي عاش فيه الإنسان متنقلا وراء الرزق واعتمد فيه علي الصيد . وقد تميز الفن في هذه المرحلة بأنه كان فنا واقعياً إذ كان الإنسان ملاحظا دقيقا

للطبيعة وناقلا دقيقا لها . ولم يعرف الإنسان في هذه الفترة الاستقرار، وإنما كان يعيش في مجتمع بدائي في جميع مظاهر حياته .

وفي هذا النمط اتخذ الفن شكل موضوع النفع المادي، مثل الأدوات والأسلحة، فقد ظهرت الأدوات الحجرية في العصر (الباليوليتي) أو العصر الحجري القديم . وكانت في البداية أحجارا بسيطة تم انتقاؤها بسبب شكلها ثم جري شظفها واخذ في تشكيلها تماما لملائمة الحاجة الإنسانية وكانت صناعة الفخار أحد الإنجازات الكبيرة التي قام بها المجتمع البدائي، وهو يعيد تشكيل المواد لتلائم حاجات الإنسان[1].

أمّا النمط الثاني فهو نمط في العصر الحجري الحديث، وفيه عرف الإنسان الاستقرار، وأكتشف الزراعة وتربية الحيوان . وقد ساد هذا الفن الحضارات الشرقية القديمة التي قامت علي ضفاف الأنهار، وفي مصر وبلاد مابين النهرين . وكانت أهم خصائص هذا الفن الحجري الحديث ارتباطه بوجهة نظر دينية تجاه الحياة والاعتقاد في وجود النفوس والآلهة، وعني بإقامة الطقوس لعبادتها، وقد ترتب علي هذا الاعتقاد وجود عالم إلهي مقدس[2] .

وقد تميز هذا الفن بالقدرة علي التجريد وعلي استعمال الرموز والتقييد بالأسلوب الهندسي وبالقواعد الثابتة التي لا يسمح معها للفنان بحرية التغيير أو الخروج عليها كما يشاهد بوضوح في الفن المصري القديم، وهو الفن الذي سيطرت عليه تعاليم الكهنة[3].

وعلي كل فإذا كان لدي المصريين القدماء دراية بالفن فإنه لم يخرج علي إدراكهم للتجربة الدينية . ومصر كغيرها من الشعوب القديمة كانت متأثرة بالسحر إلي حد كبير، وبوجود قوى خفية خارقة، فوق طبيعية، يجب إرضاؤها، أما للحصول علي مساعدتها، وإما لتحييدها تجنبا لعداوتها[4]

وكانت أهم مواطن هذا الطراز التجريدي الهندسي للفن في أرض اليونان في المناطق الزراعية وريثة الحضارة الكريتية، والتي عاشت فيها العناصر الدورية مثل (كريت) و (اسبرطة)

غير أن أهم ما كان يميز هذا الفن في العصر القديم أنه لم يكن يعرف عند أهله علي أنـــه نشـــاط يمارس كغاية في ذاته ومن أجل الإحساس بالجمال أو اللذة الجمالية . بل كان في بادئ الأمر وفي المجتمع القبلي يختلط بالطقوس الدورية التي تقيمها القبيلة من أجل زيادة الزرع والنسل، أو عندما كانت تتأهب لمعركة الصيد أو الإغارة علي العدو . وكان أيضا يختلط بالسحر الذي اتخذه الإنسان سبيلا للتأثير علي الواقع وتوجيهه نحو ما يرغب فيه. وكان يخضع للدين بغية استرضاء الآلهة[5].

ولم يكن في إرتباط الفن بالدين ما يقلل من أهميته، بل كان ذلك إعترافا بما للفن من دور وقيمة كبرى لدى الأمم المختلفة ، يقول: " محمد علي أبو ريان " : "أن اتخاذ الفن وسيلة للتعبيـــر عن الحياة الدينية يعد اعترافا بما للفن من قيمة كبري عند هذه الشعوب". [6]

فلسفة الجمال والفن في الفكر اليوناني:

يعتبر الاهتمام بالقيمة الجمالية من أقدم اهتمامات الإنسان منذ فجر التاريخ وحتـــى قبـــل وصول المجتمعات إلي أطوارها المتقدم. وقد كان اهتمام الحضارات القديمة بالفن تعبيرا عن أهمية القيمة الجمالية.

وذلك كما حدث لدي البابليين، وفي الهند والصين، ثم عند اليونانيين حيث كان الجمال قيمة بارزة من القيم الثلاث الحق والخير والجمال[7].

وقد تمايز الإحساس الجمالي للإنسان من خلال عملية مركبة تداخلت فيها الحياة الاجتماعية مع الممارسات العملية إلي جانب العلاقة بالطبيعة، وكانت نتيجة ذلك أن ظهر الجمال متداخلا مع غيره من الأنشطة والاهتمامات الإنسانية[8].

النظرية الفيثاغورية في الجمال:

رأي فيثاغورس(*) الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد . أن النظر العقلي والمران بالعلم الرياضي أسمي طرق تطهير النفس . ويعتبر برنت (Burnet) قول (سقراط) [*] في محاورة (فيدون) أن الفلسفة هي أسمي أنواع الموسيقي عبارة عن فيثاغورية الأصل[9].

وارتباط التأمل الفلسفي بالتذوق الفني للموسيقي الذي تلخصه هذه العبارة يمكن ان يعد نقطة البداية لتحديد رايه في الجمال الفني . بل لقد استطاع أن يطبق نظريته الفنية هذه علي الموسيقي . وقد كان فيثاغورس يمارس الموسيقي . وقد انتهي فيثاغورس من تحليل الموسيقي إلي وضع تفسير عددي لأنغامها وفسر التوافق الموسيقي أو الهارموني بأنه يرجع إلي وجود وسط رياضي بين نوعين من النغم بل استطاع فيثاغورس أن يطبق نظريته في توافق الأصوات الهارموني علي الأجرام السماوية نفسها[10].

واستطاعت الفيثاغورية أن تصوغ أفكارها الفلسفية في صبغة رياضية فقدم لأول مرة معيارا صوريا للجمال . وقد تأثر بهذا المعيار الجمالي الكثير من فناني أثينا في مطلع القرن الخامس، وعلي رأسهم شاعر التراجيديا الأول (اسخيلوسي) الذي كان علي حد رواية (شيشرون) متأثرا بالفيثاغورية وأطلع عليها من خلال رحلاته المتكررة إلي صقلية قد طبق (اسخيلوس) هذا المعيار الجمالي الفيثاغوري علي تراجيدياته الثلاثية المعروفة باسم (الأورستية) التي يختتمها بحل وسط يتفق عليه طرفي الصراع[11].

كما أن فن النحت عند " فيدياس " و " بولياكليتوس " لايخرج عند تصويره للإنسان عن النسب والقواعد التي يفترضها المعيار الرياضي الهندسي للجمال عند فيثاغورس . ومن هنا يتضح أن اكتشاف الفلاسفة للنظام في الكون الطبيعي وإدخال الفيثاغوريين أفكار الائتلاف والوسط

الرياضي والوحدة التي تندمج فيها عناصر الكثرة كانت المادة التي صاغوا منها معيارهم الهندسي للجمال[12].

أما في الفلسفة السوفسطائية[*] والتي ظهرت في القرن الخامس ق.م فقد اعتمدت فلسفتهم علي نظريتهم في الحس أو الخبرة العملية . ولما كان السوفسطائيين يأخذون بموقف نقدي من التراث فقد أرجعوا القيم جميعا سواء القيم الأخلاقية أو الفنية إلي المصدر الإنساني، وبناء علي ذلك فقد نظروا إلي الفن علي أنه ظاهرة إنسانية، ولا يرجع إلي أصل إلهي أو مصدر مقدس . كذلك وضح لهم أن القيم الجمالية يمكن أن تتميز بتغيير ظروف الحياة الإنسانية وبحسب اختلاف الزمان والمكان[13].

فيري " بروتاجوراس " أن الفن نسبي، ومهارة مكتسبة بالخبرة والتعليم[14] . أم "جورجياس " فيري أن الجمال يرتبط بالنشوة واللذة الحسية[15]، وله قدرة كبيرة علي بعث الأوهام في نفس الإنسان[16] .

الخير والجمال عند "سقراط":

وضح " أفلاطون " في محاورة " أيون " موقف سقراط العقلي المتشدد من الفن الذي يعتمد علي الوهم والخداع والتأثير في الجمهور، فيذهب في هذه المحاورة إلي القول بإن " أيون " الراوية لايعقل شيئا مما يرويه متن شعر فهو كالمسحور أو المنوم تنويما مغناطيسيا لهذا كان من الطبيعي أن يشتد " سقراط " في معارضته لهذه الاتجاهات وما ارتبط بها من نظرية تجعل الفن غاية في ذاته وليست وسيلة : ولم يكتف "سقراط " بالمعارضة فقد وضع الشروط الأساسية لنظرية إيجابية في الفن تري أن الفن سواء ما كان منه فناً جميلاً أو فناً صناعياً له وظيفة تخدم

الحياة الإنسانية، وبمعني أدق الحياة الأخلاقية . لذا رأي سقراط أن الجمال هادف . فالجميل هو ما يحقق النفع أو الفائدة أو الغاية الأخلاقية العليا[17].

وفي ضوء ذلك عرف سقراط الجمال بأنه النافع[18] . وقد اهتم " سقراط " بجمال وضرورة نبذ جمال الجسد، فذهب إلي أن الجمال الحسي الجسماني لا خير فيه لا للمحب ولا للمحبوب، وإن جمال النفس من شأنه أن يرفع الإنسان إلي مرتبة الأبطال" كهرقل " أو " كاستور "[19]

ويري سقراط أن الفن يجب أن يكرس لخدمة الأخلاق .والجمال يجب أن يرد إلي الخير لا إلي اللذة الحسية، وربما هذا ما ألب عليه الشعراء لدرجة مطالبة بعضهم بمحاكمته وإعدامه[20].

أفلاطون وموقفه من الجمال:

إن " أفلاطون " هو أول فيلسوف يهتم بتسجيل موقف من ظاهرة الجمال، فأقام للجمال مثالا هو الجمال بالذات ذلك الذي يحتذ به الصانع في خلقه لموجودات العالم المحسوس.

إن " أفلاطون " أولا باكتشاف سمات الجمال في الموجودات الحسية وفي الأفراد ولكنه أخذ يصعد تدريجيا من هذا الجمال الفردي المحسوس لكي يكتشف علته في الأفراد جميعا، وهكذا إلي أن أكتشف مصدر الجمال المحسوس في مثال " الجمال بالذات " في العالم المعقول وذلك الذي يشارك فيه الجمال المحسوس، ثم أنه ربط بعد هذا بين الحق والخير والجمال[21].

وقد تكلم " أفلاطون "عن الجمال في محاورتين بطريقة تفصيلية المحاورة الأولي هي " أيون " ثم محاورة " هبياس الأكبر " فذهب إلي أن الجمال هو الهدف الدائم للحب، حيث يتجه الحب أول ما يتجه إلي جمال الأجسام الأشكال . عند هذا الجمال يقف الأكثرون ظانيين أنه الغاية ولكن النفس الحكيمة تدرك أنه زائف زائل . وأن هذا الجمال في الجسم هو أخ للجمال المتحقق في

سائر الإنسان . وإن الجمالات الجسمية أشباه بعيدة لجمال واحد بعينه يحويها في وحدته، هو مثال الجمال المحسوس . فعندما تمد النفس إعجابها إلي الجمال الحسي، فإنها تدرك أن ما تحب من الأجسام هي صفاتها، وأن هذه الصفات فائضة عليها من النفس مصدر حياتها، فترتفع من المعلول إلي العلة وتنفذ إلي النفس مهما كان غلافها دميما لعلمها أن النفس جميلة في ذاتها، فتتعلق بها، ثم تعلم أن النفوس مشتركة في جمال واحد هو الجمال المعنوي، فتصعد من جمال النفوس إلي جمال الفنون، فإلي جمال العلوم النظرية، ولا تزال تصعد من علم إلي علم حتي تبلغ الجمال كله .فتقف متأملة وتتهيأ بهذا التأمل لمشاهدة الجمال المطلق غير المخلوق الفاني، الذي لا يزيد ولا ينقص ولا يتغير بحال، الجمال الجمال بالذات الذي يحب لذاته . من يشاهده يتعلق به ويخلد فيه . إن ما يعطي قيمة لهذه الحياة إنما هي مشاهدة الجمال السرمدي . ويري " أفلاطون " أن المحب للجمال الحقيقي هو الفيلسوف الذي يزدري الجمال الزائل، ليتعلق بالجمال الدائم[22].

وإذا انتقلنا إلي الفن . فإنه بالنسبة " لأفلاطون " طريقة في التعبير بواسطة أشياء حسية، عن عالم المثل، فعالم الفن هو عالم أشباح وأوهام، ترمز كلها إلي عالم آخر .وعندما يري الإنسان أي عمل فني، فإن النفس تتذكر العالم التي كانت فيه قبل أن تسقط في الجسد . فالفن بالنسبة لأفلاطون له دور مهم علي صعيد تذكير النفس بالعالم الذي كانت فيه، وهو الذي يحرضها علي العودة إلي هذا العالم[23].

ويعتمد الفن عند " أفلاطون " علي المحاكاة، وقد ميز " أفلاطون " بين نوعين من المحاكاة : محاكاة مصحوبة بمعرفة للحقيقة، ومحاكاة خالية من المعرفة وهي محاكاة الظن.

ويري " أفلاطون " أن النمط الأول من المحاكاة يتميز بالصدق ويلتزم بالحق، ويحقق الجمال . أما النمط الثاني من المحاكاة فيعتمد الوهم والخداع[24].

وقد طبق " أفلاطون " فكرة المحاكاة علي الشعر و الموسيقي والتصوير، كما طبقها علي السفسطة والخطابة فبين ما يمكن أن تصل إله المحاكاة من تزييف للحقيقة وبث للأوهام، وما يترتب علي ذلك من أخطار علي النشىء وعلي المجتمع وعلي التكوين الفلسفي للفيلسوف، تلك المحاكـــاة التي لا تستند إلي المعرفة الحقيقية التي ضللت فن السوفسطائي وفن الخطيب هي أيضا التي تضلل فن الشعر وباقي الفنون الجميلة، لأنها محاكاة لا تصحبها معرفة لذا فإنه يرفضها[25].

وعلي كل فأن " أفلاطون " يفرق بين نوعين من الفنون : فن قائم علي الوهم أي يقلد وهما، وفن قائم علي محاكاة الحقيقة وهذا هو الفن بالمعني الحقيقي يقول:

"فالفن القائم علي المحاكاة بعيد كل البعد علي الحقيقة، وإذا كان يســتطيع أن يتنـــاول أن يتناول كل شئ، فما ذلك علي ما يبدو إلا لأنه لا يلمس إلا جزءا صغيرا من كل شئ وهذا الجــزء ليس إلا شبحا ففي وسع الرسام مثلا أن يرسم لنا إسكافيا أو نجارا أو أي صانعا آخر دون أن يعرف عن مهنتهم شيئا ن وقد يستطيع إذا كان رساما بارعا، أن يخدع الأطفال والجهال، إذ يرسم نجـــارا ويريهم إياه عن بعد، فيظنونه نجارا حقيقيا، وماهو إلا مظهر."[26]

وعلى الرغم من الفن في كل الأحوال يقوم علي المحاكاة إلا أنه يرسم الطريق التي ينبغي أن يتبعها الفنان، يقول:

"فلابد إذن أن يهتم الفنان الحقيقي، الذي يعرف ما يقلده، بالحقـــائق لا بمحاكاتهـــا، وان يحرص علي أن يخلف من بعده آثارا قوامها عدد كبير من العمال الرائعة." [27]

ولهذا يري " أفلاطون " أنه يتعين أن لا يقبل في المدينة الفاضلة من الفنون سواء كانـــت شعرا أو موسيقي أو نحتا أو رسما أو رواية سوي ما يكون منها موجها إلي تمجيد الآلهة وتقـــدير البطولة أو الإشادة بفضائل الأعمال وإرشاد النشىء إلي الفضيلة وحب الخير والعلم. [28]

كما يجب علي الفنان أن يلم بمعرفة حقيقة النفس البشرية، عليه أيضا أن يعرف الطبيعة الحقة للأشياء التي يتحدث عنها ولا يكتفي بنقل المظهر المحسوس منها فقط، فإذا استطاع أن يقوم بذلك فإنه لا يكون ناقلا محاكيا لصور الحقيقة بل معبرا عن الأصل الإلهي، وهو الذي يمكن أن يتصف إنتاجه بالجمال الحق.

لهذا يري " أفلاطون " أن الفيلسوف الفنان الذي يبدع الآثار الجميلة هو الذي يكون معبرا للناس عن الحقائق الأصلية لا صورها، وهو الذي يكتشف في باطن النفس البشرية ما انطوت عليه من مثل إلهية، وهذه هي العبرية الفنية في رأي أفلاطون. (29)

ويترتب علي آراء " أفلاطون " أن وظيفة الفنان الحق في وجهة نظره أشبه بالواسطة لنقل الحقيقة وتوجيه الجمهور إلي الخير، وهي مهمة لا يمكن أن يقوم بها أي إنسان عادي، بل إنسان ملهم والفنان هنا لا يرجع فضله إلي خلقه لشيء جديد من العلوم، وإنما فضله فضله يرجع إلي قدرته وموهبته البارعة في التسامي إلي هذا العالم الحقيقي الوجود لينقل منه إلي الناس آثاره البديعة، كما نقل " برومثيوس " الفنون من الآلهة إلي الإنسان. (30)

موقف أرسطو من الجمال والفن:

أهتم " أرسطو " في كتابه " فن الشعر "بالمفاهيم الجمالية . فكان يري أن الموضوع الجمالي سواء كان كائنا حيا أو أي شيء آخر يتكون من أجزاء، ولكي يكون جميلا فإنه يجب أن ينطوي علي نظام لأجزائه، ويجب أن يكون له شكل معين . لأن الجمال يعتمد علي الشكل (النظام) (31).

هذا وغدا كان " أفلاطون " قد ذهب إلي أن الفن قد هبط علي الإنسان من السماء حين جاء به الإله " بروميثوس " ووهبه للبشر " وأن الجمال إنما يستلهم من مثال مفارق . فإن "

أرسطو " تحدث عن الفن بأسلوب علمي، وذهب إلي القول بإن الإنسان زودته الطبيعة باليد أقوي الأسلحة التي يستطيع أن ينتج بها من الفنون المختلفة ما يكمل به الطبيعة ويقومها . واليد هي الأداة التي تخلق غيرها من الأدوات و بها يصنع الإنسان ما شاء من فنون[32].

وبينما نجد مصطلح المحاكاة عند " أفلاطون " مصطلحا واسعا مبهما، يشمل كل أنواع الإبداع العقلي والفلسفي والفني، فإن " أرسطو " قد قصر فكرة المحاكاة علي الفنون، بل خص بل خص الفنون الجميلة باسم فنون المحاكاة تمييزا لها عن باقي الفنون الأخري التي غايتها إنتاج ما يستعمل أو يفيد الإنسان[33] .

وفي حين اشترط " أفلاطون " بأن يكون الفن الجيد محاكاة للجمال المثالي رأي " أرسطو " أن الفن لا يعرف بأنه محاكاة للجمال بقدر ما يكون محاكاة جميلة لآي موضوع حتى ولو كان مؤلما ورديئا[34].

ولذا فإن " أرسطو " قد عمم فكرة المحاكاة علي كل أنواع الخلق الفني ولم يشترط ضرورة أن تكون الموضوعات المحاكات موضوعات عظيمة أو جميلة لأن محاكاة بعض الأشياء القبيحة قد تكون محاكاة جميلة[35].

وإذا كان " أفلاطون " ينتقد الخطابة والشعر فإن " أرسطو " كان علي خلافه يهتم بها، وله في الخطابة كتاب يتعرض فيه لفن الإقناع في الخطابة، وكذلك للأسلوب وصوره وصفاته وأشكاله الجمالية، ويحاول أن يضع نظرية في الفن تقوم علي أساس من الجدل[36] .

وللفن عند " أرسطو" وظيفة مزدوجة : فهو يقلد الطبيعة أولا ثم يتسامي عنها . وليس التقليد في نظر " أرسطو " أن ينقل الفنان المظهر الحسي للأشياء كما تبدو له في الواقع أي – أن صح هذا التعبير – أن يكون مجرد مصور فوتوغرافيا للمرئيات . بل الواقع أنه أن يكون تقليد الفنون للأشياء تصورٌ لحقيقتها الداخلية، فيقدم الفن لنا نماذج وصورا مشتقة من القوانين

العامة التي تحكم الطبيعة . فإذا تناولنا الشعر الجيد مثلا، فإننا نجد أنه يترفع عن المعاني المحسوسة الملموسة المبتذلة، فلا يصف الأمور كما تجري في واقعها السهل، ولكنها يسمو بها إلي مستوي عال من الأداء العقلي والفني .

ويري " أرسطو " أن الشعر بذلك يكون أكثر جدية[37] . فالفن يبحث دائما عن المثل الأعلي لا يحاكي الطبيعة كما هي عليه بل يتجاوزها إلي النموذج . ومن هنا فقد قرب " أرسطو " مابين الشعر والفلسفة يقول : أن مهمة الشاعر ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلا بل رؤية ما يمكن أن يقع، والأشياء ممكنة : أما بحسب الاحتمال أو بحسب الضرورة . ذلك أن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بكون احدهما يروي الأحداث شعرا والآخر يرويها نثرا . بينما الآخر يروي التي يمكن أن تقع . ولهذا كان الشعر أوفر حظا من الفلسفة واسمي من التاريخ لان الشعر أنما يروي الكلي والتاريخ يروي الجزئي[38] .

أما الموسيقي عند أرسطو فهي تستهدف أمور أربعة :

1- التسلية أو الترفيه .

2- التربية الأخلاقية .

3- شغل الفراغ مع الشعور باللذة .

4- التطهر .

وجميع هذه الفنون كالتمثيل والشعر والموسيقي يمكن أن تجعل واحداً من هذه الأهداف الأربعة هدفا لها . ولكنها لا يمكن أن تجعل التسلية المجردة وحدها هدفا لها. فليست غاية الفن أن تكون مجرد التسلية، وكذلك فإن التطهر يفهم من النواحي الأخلاقية والجمالية . وإذا ما تحقق هذا التطهر نتيجة للتذوق الفني والجمالي، فإنه يحدث شعورا بالراحة النفسية أو بنوع من الرضا أو باللذة[39] .

وعلي هذا الأساس فان " أرسطو " استطاع أن يوجه الفكر الجمالي توجيها جديدا مختلفا عما ذهب إليه أفلاطون بهذا الصدد، ففي حين رأي " أفلاطون " في الانتقال الناتج عن تذوق الفنون أثرا ضارا باتزان النفس أكد أرسطو أن لهذا الانتقال أثرا صحيا وعلاجا لها [40].

ونجح " أرسطو " في وتحقيق التوازن في تأكيده للجانب التربوي في الفن حين وضع أثر الموسيقي والتصوير في تربية النشىء، وذلك عندما تعرض لتربية المواطنين في كتاب السياسة . وفي الوقت نفسه كان من أكثر الفلاسفة احتفاء بتنمية التذوق الجمالي كعامل أساسي في تربية المواطن وتكوينه التكوين اللائق بالإنسان، يقول " إن تعليم النشىء الرسم والتصوير لا يقتصر علي تزويدهم بالقدرة علي تقدير قيم السلع التجارية بل تنمية قدرتهم علي ملاحظة الجمال في الأشياء " " إن الغاية التي كان أرسطو ينشدها من الفن لم تكن دائما تحقيق القدرة علي حسن التصرف في الحياة العملية فحسب، وإنما هو أيضا إشباع للحس الجمالي، وهي الغاية التي أكدها بالنسبة لفن المسرح بوضوح ثم عممها علي باقي الفنون علي السواء[41].

النظرية الأفلوطينية في الجمال :

رأي أفلوطين(*) أن الجمال هو الخير، متابعا في ذلك موقف " أفلاطون "، وأن طبيعة الخير تشع الجمال، وأنه وجود حقيقي لأن النفس هي قبس من الجمال الأول، وكل ما تمسه يكون جميلا في حدود قدرة الشىء علي تلقي الجمال[42] .

يقول " أفلوطين " : من العقل تستمد النفس جمالها، أما أنواع الجمال الاخري مستمد من النفس، ولأن النفس إلهية ولأنها جزء من الجمال فإنها تجعل كل ما تمسه وتسيطر عليه جميلا، علي الأقل في حدود قدرة الشىء علي تلقي الجمال "[43]

ويري " أفلوطين " أيضا أن الأشياء تكون جميلة بقدر مشاركتها في الطبيعة الإلهية وانعكاس الفكرة الإلهية عليها، وهذه الصفة أوضح ما تكون في الأشياء اللامادية، فللفضائل جمالها، وللنفوس جمالها، وجميع مظاهر الجمال فيها، ترجع إلي شعورنا بحضور الله فيها[44].

ويري أفلوطين أنه لما كان الجمال عنصرا رئيساً وأساساً من عناصر النفس منذ وجودها، فإنها عندما تري الجميل تندفع نحوه علي أساس التشابه الذي بينهما . وبهذا ترتفع من العالم الحسي إلي العالم العقلي، حتي تحقق وجودها الحقيقي ويكون كل شيء جميلا بقدر ما فيه من وجود . أن الجمال إذن يتركز في التناغم والوحدة وتنسجم النفس بالجمال لان بها فكرة عنه.

وحنين النفس لمعانقة الجمال لا يكون عن طريق المادة بل عن طريق الصورة فهي حامل للجمال، الوجود الحقيقي، والنفس لا تصير قبيحة إلا من اختلاطها بالمادة [45].

والنفس لا تستطيع أن تري الجمال ما لم تصبح هي الأخري جميلة . غير أن بقاء الفكرة (أي الجمال) دون تجسد ليست جمالا إذ يجب أن يتجسد وإنْ كان الجمال نفسه ليس هو التجسد. " إنَّ الجمال هو التجسد يكون بفضل العقل الذي يجعل كل شيء جميلا . إن الله هو ينبوع الجمال وهو الذي يولد الكون ويبث الجمال في النفس وإنْ كانت هي أقل جمالا من العقل[46].

وقد رتب " أفلوطين " علي هذا رأيا في جمال العمل الفني مفاده أن الفنان لا يحاكي فحسب بل هو يرتد إلي مبادئ الأشياء ويضيف إليها ما هو مفقود . والفن يرتد إلي الأفكار التي تستمد الطبيعة نفسها منها، والفن هو حامل الجمال، حيث ينتقل في الطبيعة . وهو ليس قائما في الفن بل في عقل الفنان . ولذلك يري أفلوطين أن الفنون لا تقدم مجرد عرض للأشياء المرتبة بل ترتد إلي الأفكار التي تتبع منها الطبيعة .. إن الجمال جمال الصورة أو مثال الصورة .. وهكذا يرسم أفلوطين درجات من وجود الجمال[47] .

الجمال والفن عند المسلمين :

الأمر الذي لاشك فيه أن المسلمين ولا سيما في عصور الازدهار الحضاري قد شغفوا بالفنون . وكتب السير والآداب والتاريخ مليئة بالعديد من المواقف التي تنم علي استحسان الأعمال الفنية من غناء ورقص وشعر .. الخ . وكان النظر إلي هذه الفنون من ناحية استثارتها للحس، أي تقويم الجمال كان يستند إلي التناسب الظاهري المحكم في جميع مجالات الفنون التي تعارف عليها المسلمون، وذلك عدا الشعر والنثر، فالفن الشعري كان له عند المسلمين المقام الأول بين هذه الفنون جميعا، ولم يكن المتذوقون يقنعوا بإحكام الصنعة في الشعر وخضوعه للأوزان المعروفة فحسب، أي من ناحية موسيقي الشعر الظاهرة، بل كانوا يهتمون بدرجة أكبر بالمضمون الشعري، وكان الحكم علي القصيدة الشعرية بالجمال إنما يستند أصلا إلي هذا المضمون . ومعني هذا أن نظرة المسلمين إلي تذوق الجمال لم تكن تستند إلي الإدراك الحسي فحسب، بل كانت تربط اللذة بما هو جميل، بإدراك ذهني يكشف عن جمال المضمون ومدي عذرية وأصالة تركيبه[48] .

هذا وليس في وسعنا أن نستخلص نظرية مفسرة للجمال عند المسلمين إذ أن الشرع قد لعب دورا كبيرا في منع المسلمين من الفن، مستندين في ذلك مثلا إلي أن صنع التمثيل علي هيئة مخلوقات أنما يعد مشاركة للخالق في صنعه . ولكن الواقع أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء التحريم هو مخافة رجال الشرع من أن ينتكس المسلمون ويعودوا إلي عبادة الأوثان فجاء المنع لكي لا ترتبط شواهد الفن من تماثيل بشرية أو حيوانية بذكريات العرب في الجاهلية بالأصنام التي كانوا يعبدونها . ولم يمنع التحريم المسلمين في الأندلس من أن يبرعوا في النحت فتصدر عنهم وحدات فنية رائعة مثلا :

كتماثيل السباع في قصر الحمراء بغرناطة . والفرس لم يأبهوا بهذا التحـــريم فظهـــرت عندهم أعمال زخرفيه رائعة وتصوير علي النسيج وعلي جدران القصور والمساجد[49] .

وقد لخص محمد عبدالواحد حجازي عناصر أسلوب الفن الإسلامي في الآتي:

1- إهمال المظاهر الحسية في العمل الفني وإغفال تفاصيل العناصر المرسومة وتجريد العناصر الطبيعية إلي خطوط بسيطة هندسية وإحاطة العناصر بالخطوط .

2- تجنب صراع النظر والمنظور والاتجاه نحو السطح .

3- عدم استعمال الظلال والأضواء مع تغطية المساحات بلون واحد مع بهجة ونقـــاء ألوانهـــا . كما أن استخدام اللون يحقق قيمة جمالية ولغة مرئية.

4- ترفض الزخرفة الإسلامية النحت الثلاثي الأبعاد، ولا تعرف النتوءات القوية.

5- إثبات بعض العناصر الوهمية أو المستحيلة هنا وهنـــاك، كاســـتعمال الألـــوان بطريقـــة لا واقعية[50]

ويمكن القول إن الفن في العصر الإسلامي قد ارتقى نحو المثل العليا والمواجيد الســـامية التي تمثلت في إستلهام الروح الإيمانية لصياغة أعمال فنية غاية في الدقة والتفصـــيل بخطـــوط وهندسات تبعد عن تجسيد الملامح العينية مما يجعل هذا الفن مختلفا عن سائر الفنون التي مرت بها البشرية بشكل كبير.

وإلى جانب ذلك نرى إتساع الدائرة الحضارية لتشمل عدة حضارات وأمم إنضوت تحت مظلة الإسلام بإبداعاتها وفنونها الخاصة والمميزة إلا أن الفن الإســـلامي ظـــل ينصـــب علـــى جماليات الأدب واللغة بشكل خاص نظرا لأنه إمتداد لحضارة العرب قبـــل الإســـلام بميراثهـــا الشعري الرصين من جهة ولأن معجزة الإسلام هي القرآن الذي هو كتاب بيان بالدرجة الأولـــى تحدى فصاحة العرب وبلاغتهم ،ولذلك نجد المفكرين من مثال الجاحظ وأبو حيـــان التوحيـــدي

اللذين تعاصرا يؤكدان على النسبية في الجمال والقبح وكذلك إبن قتيبة وإبن قدامه والجرجاني قد إنصبت وجهات نظرهم في الجمال والنقد على جماليات اللغة والأدب .

وقد اهتم الفلاسفة بفن الغناء والموسيقي و قد ضربوا بسهم وافر في تصور أهمية الموسيقي ودلالتها النفسية والفنية . فللكندي وابن سينا وأخوان الصفا كتابات مطولة في القواعد الموسيقية والنظريات الموسيقية [51]. ويعد كتاب الفارابي في الموسيقي من أشهر المؤلفات الموسيقية في العصور الوسطي .

الجمال والفن عند الصوفية :

ارتبط موقف الصوفية من الجمال وتفسيره بالجمال الإلهي . فكل الجمالات الجزئية – في رأيهم – سواء كانت عقلية أم حسية إنما تشارك في الجمال الإلهي وترتبط به لأنها اثر من أثاره[52] .

فيري الغزالي أن لا خير ولا جمال إلا وهو حسنة من حسنات الله وأثر من أثار كرمة وغرفة من بحر جوده سواء أدرك هذا الجمال بالعقل أو بالحس[53] .

وقد ميز الغزالي بين طائفتين من الظواهر الجمالية :

الطائفة الأولي تدرك بالحواس، وهذه تتعلق بتناسق الصور الخارجية وانسجامها سواء كانت بصرية ام سمعية أم غير ذلك . وأما الطائفة الثانية فهي ظواهر الجمال المعنوي التي تتصل بالصفات الباطنة . وأداة إدراكها القلب، فالقلب اذن (اي الوجدان) هو قوة إدراك الجمال في المعنويات[54] .

وأيضا نجده يميز بين القلب والعقل، وفي نظره أن المعقولات تولد لذة العقل وان هذه اللذة مرجعها جمال المعقول . وهنا نستطيع ان نفسر موقف الغزالي من التذوق الجمالي، حيث يشير الي ظواهر جمالية ثلاث : حسية ووجدانية، وعقلية[55].

فلسفة الجمال في العصور الوسطي المسيحية :

يرى القديس "أوغسطين" أن الله هو مصدر كل جمال وكل كمال وكل محبة ويفيض الجمال عن الله كما تفيض الأشعة عن الكواكب والأريج عن الأزاهير ...

وفي هذه النظرة المسيحية ملامح عصر جديد إبتعد عن الوثنية وأرتقى نحو قيم المحبة والتسامح والزهد والتضحية والإيثار والشوق والأمل وغيرها من المثل التي ينادي بها الدين السماوي.

كما تطور الفن في هذا العصر نحو القيم الإجتماعية العامة بعد أن كان للخاصة فيما سبق من العصور ولذلك أصبحت صور العذراء والقديسين وغيرها من إبداعات وأيقونات التي تعكس المضامين الروحية والإنسانية بارزة في أعمال الفنانيين .

وفي العصور المسيحية نجد تمجيدا لاتجريما وترحيبا لا منعا، فقد ظهرت في هذه الفترة روائع الفن العالمي ثم ازدادت تطورا في عصر النهضة . مما ساعد الفلاسفة في هذه الفترة علي التامل والتعليق علي هذه الفنون وصياغة نظريات واحكام انطلاقا من هذه الروائع . وكان هذا حافزا وتمهيدا لبلورة فلسفة الجمال في العصر الحديث[56].

فقد تفنن الرسامون في تزيين الكنائس والمعابد ورسم الصور المختلفة التي تصور الكفاح الديني، كذلك إظهار البراعة في صنع قطع الزجاج الملون التي تركب في نوافذ الكناس إلى غير ذلك من الفنون التي إرتبطت بالدين وكان أعظم ما أنتجه الموسيقيون قبل القرن العشرين هو تلك المقطوعات الموسيقية التي كانت تعزف علي الأرض وتترنم بها الجوقات الدينية في الكنائس[57].

كما وجدت في تأملات القديس " أوغسطين " (*)عن الجمال إشارات إلي فنون متباينة، إلا أن آراءه لم تكن تهدف الي تفسير الفنون الجميلة، كما أن تصور الجمال الذي ناقشه القديس " توما لاكويني " عولج في إطار إنتسابه إلي الله وإبداعه، وقد أعتبر الأكويني (**)الجمال جزءا من الخير[58].

وقد رأى " الاكويني " أن الجمال يتطلب ثلاثة أشياء : أولها السلامة أو الكمال، وذلك لأن كل ماليس بكامل يعتبر قبيحا، ثم يتلو ذلك التناسب أو التناغم، وأخيرا يجيء اللمعان، لأننا نسمي بالجميل كل ماله لون لامع[59] .

وقد أعتبر" الاكويني "أن السمة الجوهرية للجمال الفني والحياة الفاضلة هي سمة الإنسجام [60].

هذه ملامسة سريعة لأهم مراحل التطور التاريخي لفلسفة الجمال والفن في العصور القديمة والوسطى من تاريخ الفلسفة وسأعرض في الجزء الثاني للجمال والفن في الفكر الفلسفي الحديث.

الهوامش:

(1) فنكلشتين (سيدتي) : الواقعية في الفن، ترجمة : مجاهد عبدالمنعم مجاهد، مراجعة يحي هويدي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والترجمة، بيروت ط 2، 1986، ص 20.

(2)أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 17.

(3) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 18.

(4) سيريل (الدويد) : الفن المصري القديم، ترجمة : أحمد زهير، ط وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية

(5) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 18.

(6) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال . نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 15.

(7)رمضان الصباغ : الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء، الإسكندرية 1998، ص 99.

(8) المرجع السابق.

(*) ولد في " ساموس "، وهو فيلسوف يوناني أزدهر في حوالي عام 530 ق.م.، اعتقد في تناسخ الأرواح . وقد زاعت شهرته لمعلوماته الرياضية والعلمية . أنظر، الموسوعة الفلسفية

المختصرة : ترجمة : فؤاد كامل وآخرون، إشراف : زكريا نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963، ص ص 238 – 239.

(*)هو ابن سوفرونيقوس النحات، وفيناريت القابلة، ولد بأثينا في سنة 469 ق.م. عمل في البداية بمهنة أبيه، ثم تركها وتفرغ للفلسفة . اتهم بإفساد الشباب، وإنكار الآلهة، والدعوة إلي آلهة جديدة، فحكم عليه بالإعدام بسرب السم، وتوفي في سنة 399 ق.م. أنظر :

Erdmann Gohaw، " A History of philosophy '' ، Trans & ed by، Williston ، London ، Georfe allen & unwin Ltd.،Vol.1.،s. 1922PP. 78-85.

(9) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 26.

(10) المرجع السابق ص27.

(11) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 28–29.

(12) المرجع السابق ص29.

(*) جماعة ظهرت في القرن الخامس ق.م احترفت مهنة التعليم مقابل أجر، من أهم أعلامها : بروتاجوراس وجورجياس . أنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص191.

(13) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 21.

(14) المرجع السابق ص 22.

(15) المرجع السابق ص 23.

(16) نفس المرجع السابق .

(17) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 33.

(18) نفس المرجع السابق .

(19) المرجع السابق ص35.

(20) المرجع السابق ص37.

(21) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 16.

(22) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص98.

(23) الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص661.

(24) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 55-56.

(25) المرجع السابق ص58.

(26) افلاطون : محاورة الجمهورية، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004، 504، فقرة 595.

(27)أفلاطون : محاولرة الجمهورية، مصدر سابق، ص 509، فقرة 599.

(28) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص19.

(29) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 71.

(30) المرجع السابق ص 75.

Aristotle، '' Aristotle poetics '' ، Trans . ، by .، S.H. Butich er ، poverpug .، 4 thed.،inc. New York ، 1981، (31 .P.223)

(32) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 78.

(33) المرجع السابق ص 79.

(34) نفس المرجع السابق .

(35) المرجع السابق ص 86.

(36) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 20.

(37) المرجع السابق ص 21.

(38) أرسطو كتاب (فن الشعر): ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص46.

(39) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 21.

(40) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سابق ص 93.

(41) المرجع السابق ص 94.

(*) ولد أفلوطين في عام 205 بعد الميلاد في مدينة ليقوبوليس (أسيوط حاليا) في مصر . وعندما بلغ سن الثامنة والعشرين رحل إلي الأسكندرية، وهناك تعرف علي " أمونيس " فلازمه أفلوطين حتي وفاته. وقد اراد أفلوطين بعد ذلك ان يتعرف علي حكمة الشرق، فانضم إلي حملة الإمبراطور جورديان علي الفرس، ولكن الحملة فشلت، وهرب أفلوطين الي روما حيث استقر هناك واسس مدرسته . وقد ظل أفلوطين رئيسا لهذه المدرسة حتي وفاته عام 270 بعد الميلاد. اما عن اعماله فقد كتب أفلوطين اربعة وخمسون رسالة جمعها تلميذه فورفوريوس بعد وفاته في ستة مجموعات تحتوي كل مجموعة منها علي تسع رسائل، ومن هنا عرفت أعماله بالتساعيات . أنظر، فورفوريوس : حياة أفلوطين وتصنيف مؤلفاته ضمن، ضمن تاسوعات افلوطين، ترجمة: فريد جبر، مكتبة لبنان، بيروت ط1، 1997، ص ص 5 – 8.

(42) فؤاد زكريا : آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص264.

(43) أفلوطين : التاسوعات . نقلا عن : مجاهد نعم مجاهد، جدل الجمال والاغتراب، مرجع سابق، ص33.

(44) فؤاد زكريا : آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، ، مرجع سابق، ص265.

(45) مجاهد عبدالمنعم مجاهد : جدل الجمال والاغتراب، مرجع سابق، ص34.

(46) المرجع السابق ص35.

(47) المرجع السابق ص36.

(48) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 23–24.

(49) الموسوعة الفلسفية : مرجع سابق، ص 332.

(50) محمد عبد الواحد حجازي : فلسفة الفنون في الاسلام، مرجع سابق، ص 158.

(51) المرجع السابق ص 110.

(52) الموسوعة الفلسفية : مرجع سابق، ص 333.

(53)الغزالي : إحياء علوم الدين، جـ 3، ص 267 –306ز نقلا عن : محمد علي أبو ريـان : مرجع سابق، ص 26.

(54) الموسوعة العربية : مرجع سابق، ص 27.

(55) محمد علي أبوريان : فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 27.

(56)الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص 333.

(57)رمضان الصباغ : الأحكام التقويمية في الجمال والاخلاق، مرجع سابق ص117.

(*) ولد أوغسطين في عام 354م في مدينة " طاجسكا " من أعمال نوميـديا (سـوق أهـراس بالجزائر علي الحدود التونسية) كانت أمه مسيحية، وأبوه وثنيا . انفصل عن المسيحية فـي سن العشرين، ثم عاد اليها مرة ثانية، حيث ثم تعميده في عيد الفصح سنة 387م. وفي عـام 391 عين كاهنا، ثم عين أسقفا في عام 395 م. وقد توفي أوغسطين في عام 430م. ومـن اهم أعماله : مدينة الله . أنظر، الموسوعة الفلسفية المختصرة : مرجع سـابق، ص 74–76 عبدالرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطي، مكتبة النهضة المصرية، 1962، ص25.

(**) ولد في سنة 1225م باقليم نابلي، وتوفي في عام 1274 . من اعماله خلاصة اللاهـوت . أنظر، عبدالرحمن بدوي موسوعة الفلسفة، جـ 1، ص ص 426–428.

(58)هريزنجا يوهان : اضمحلال العصور الوسطي، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1978، ص 261.

(59) هزيزنجا يوهان : اضمحلال العصور الوسطى مرجع سابق، ص 261 .

(60) Sidenyzink. 574 ، “The moral Eggect of Art” ، Holtrin hartwinston، P،New York 1953